٣- رد العجز على الصدر

قال الشاعر [١]:

ذوائب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منها النفوس ذوائب

نظرة عجلى إلى البيت ترى فيه كلمة قد تكررت بعينها من حيث اللفظ وهى كلمة ذوائب. ترى الأولى أولى كلمات البيت، والثانية وقعت آخر البيت. والكلمتان كما رأيت مختلفتا المعنى.

ومثل هذا الصنيع، يسميه البديعيون التصدير، أورد العجز على الصدر. ويأتى فى النثر كما يأتى فى الشعر.

أما فى النثر فتأتى إحدى الكلمتين فى أول الفقرة، والثانية فى آخرها. كقوله تعالى:

﴿ **وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا** ﴾.

وقولهم: عادات السادات سادات العادات. وقولهم: الحيلة ترك الحيلة. ومثله: الإيمان حصن الأمان.

أما فى الشعر فيأتى على صور مختلفة على الوجه الآتى:

١- أن تأتى الكلمة الأولى فى أول الشطر الأول من البيت، والثانية فى آخر الشطر الثانى من البيت ومن أمثلته البيت الذى صدرنا به الحديث عن هذا الفن. ومنه كذلك قول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع

---

(١) هو أبو الحسن نصر المرغينانى. وذوائب الأولى جمع ذؤابة وهى الخصلة من الشعر، وذوائب الثانية جمع ذائبة. يعنى أن خصل الشعر السوداء أذهبت رشد النفوس.

ومنه كذلك قول الآخر :

سكران : سكر هوى وسكر مدامة أنى يفيق فتى به سكران

٢- أن تأتى الكلمة الأولى فى حشو الشطر الأول والثانية فى آخر الثانى أيضاً ومنه قول الحماسى :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار (١)

ومثله قول أبى تمام :

ولم يحفظ مضاع المجد شئ من الأشياء كالمال المضاع

٣- أن تأتى الكلمة الأولى فى آخر الشطر الأول ومنه قول الشاعر:

ومن كان بالبيض الكواعب مغرماً فما زلت بالبيض القواضب مغرماً

البيض الكواعب : الغوانى الفاتنات . والبيض القواضب السيوف . يقول . من كان همه التمتع بالغانيات فإن همى حمل السيوف القواطع . والشاهد فى مغرم ومغرم حيث وقعت الأولى آخر المصراع الأول والثانى آخر الثانى .

٤- أن تأتى الأولى فى صدر الشطر الثانى والثانية فى آخره وذلك كقول الحماسى الشاعر المعروف :

وإن لم يكن إلا معرج ساعة قليلاً ، فأنى نافع لى قليلها

فقد وقع طرفا التصدير كلاهما فى المصراع الثانى من البيت على النحو الذى تراه .

فى هذه الأمثلة ترى جميع الأطراف التى تكون منها التصدير - فيما عدا البيت الأول - تراها متفقة فى المعنى . فهو تكرار للفظ فحسب .

والتصدير كما أتى فى الألفاظ المتحدة المعنى يأتى فى المختلفة المعنى مركبة وغير مركبة على نفس المنهج الذى استقر . وإليك الأمثلة :

---

(١) العرار : النرجس البرى .

١- دعانى من ملاكما سفاها فداعى الشوق قبلكما دعانى

فقد أتى اللفظ الأول فى أول البيت والثانى فى آخره والمعنى فيهما مختلف لأن الأولى بمعنى اتركانى. والثانية بمعنى وجه لى دعوة. ونحوه قول الآخر:

سل سبيلا فيها إلى راحة النفس براح كأنها سلسبيل [١].

فالطرف الأول هنا مركب، والثانى غير مركب.

٢- وإذا البلابل أفصحت بلغاتها
فانف البلابل باحتساء بلابل

البلابل الأولى الطيور المغردة مفردها بلبل، والبلابل الثانية الأشجان مفردها بلبال. وبلابل الأخيرة جمع بلبلة وهى قناة الإبريق. والمراد منها الخمر مجازاً مرسلاً.

والتصدير فى البيت بين البلابل الأولى، وبلابل الأخيرة. وهى من الصورة الثانية لرد الإعجاز على الصدور فى الشعر. والمعنى إذا غردت الطيور وكنت مخزوناً فاطرح الأحزان بكأس من الخمر.

٣- فمشغوف بآيات المثانى
ومفتون برنات المثانى

المثانى الأولى : آيات القرآن. والمثانى الثانية الأوتار. فقد وقع التصدير بكلمة فى آخر المصراع الأول وأخرى فى آخر الثانى وهى الصورة الثالثة.

٤- أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح[٢]

وقع طرف التصدير الأول فى أول المصراع الثانى والثانى فى آخره. وهى الصورة الرابعة فى التصدير الشعرى.

---

(١) الراح : الخمر والسلسبيل الماء العذب.
(٢) فلاح الأولى فظهر - والثانية بمعنى الفوز والنجاح.

وإلى هنا مضى لك التمثيل لنوعين هما إذا كان لفظا التصدير مكررين، أو متجانسين. وأنت خبير بأن المكرر معناه متحد، أما المتجانس فمعناه مختلف وإليك الآن التمثيل للملحق بالجناس على نفس النسق فى السابقين:

١- قال البحترى :

ضـــرائب ابتـــدعـــهـــا فى الســـمـــاح

فلسنا نرى لك فـــيـــهـــا ضـــريبـــا (١)

٢- وقال امرئ القيس :

إذا المرء لـم يخـــــزن عـليـــــه لســـــانه

فـليس عـلى شئ ســـــواه بـخـــــزان (٢)

٣- وقال عبد الله بن عيينة :

فـدع الوعـيـد فـيـمـا وعـيـدك ضـائرى

أطنين أجنحـــة الذباب يضـــيـــر (٣)

٤- وقال أبو تمام :

وقـد كـانت البـيض القـواضب فى الوغى

بواتر فـــهى الآن من بعـــده بتـــر (٤)

إيضاح :

فى هذه الأمثلة الأربعة تصدير بين لفظين ليسا مكررين ولا متجانسين بل ملحقان بالمتجانس إذ يجمعها أصل لغوى واحد وهما مختلفان فى المعنى.

---

(١) ضرائب يعنى خلق وسجايا. وضريبا يعنى مثيلا.

(٢) يعنى إذا المرء لم يحفظ سر نفسه فلا تثق فيه.

(٣) الوعيد : التهديد بالشر. ضائرى : مضرى. والاستفهام فى أطنين الكارى.

(٤) البيض القواضب : السيوف القواطع. بواتر قاطعة. بتر مقطوعة.

ففى المثال الأول وقعت ضرائب فى أول المصراع الأول. وضريبا فى آخر المصراع الثانى. وهذه الصورة الأولى فى كل تصدير.

وفى المثال الثانى وقع يخزن فى حشو المصراع الأول. وخزان فى آخر المصراع الثانى وهذه هى الصورة الثانية فى كل تصدير.

وفى المثال الثالث وقع ضائرى فى آخر المصراع الأول ويضير فى. المصراع الثانى. وهذه هى الصورة الثالثة فى كل تصدير.

وفى المثال الرابع وقع بواتر فى صدر المصراع الثانى، وبتر فى آخره وهذه هى الصورة الرابعة والأخيرة فى كل تصدير.

ومن هذا نعلم أن صور التصدير، أورد الأعجاز على الصدور اثنتا عشرة صورة.

أربع منها مع اللفظ المكرر غير المتجانس. وأربع منها مع اللفظ المكرر المتجانس وأربع منها مع اللفظ المكرر الملحق بالمتجانس.

هذا فى الشعر. أما فى النثر فليس له إلا صورة واحدة – كما تقدم – هى أن يقع اللفظ الأول فى صدر الفقرة، واللفظ الثانى فى آخر الفقرة وقد تقدمت لك أمثلتها.

* * *

المحاكاة بين الشعراء

بدء الحياة الأدبية عند العرب قديم، فقد سبق ذلك عصر الإسلام بمراحل يصعب تحديدها على الباحثين. بل أن بعض مظاهر تلك الحياة الأدبية كالشعر لم يهتد البحث إلى رأى يقين فى ميلاده، فبينما يرى البعض أنه يرجع إلى ما قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً، أو مائتى عام [١]، يذهب البعض الآخر إلى أنه قديم يرجع تاريخه إلى تاريخ نطق اللغة العربية[٢].

والقدر المسلم به أن دولة الشعر بمعناها الذى عرف بعد فى جزيرة العرب لم تكن معروفة قبل ظهور الشاعرين: المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس. فقد كان المعروف للعرب قبلهما أن يبلغ الشاعر منهم وضع أبيات دون السبعة. أما هما فقد خطوا بالشعر خطوات هائلة إلى الأمام ويكاد يستقر عند الباحثين أن المهلهل وامرئ القيس هما أول من قصد القصائد [٣].

وزهير بن أبى سلمى وهو من فحول الشعراء الجاهليين يؤكد نظرية قدم الحياة الأدبية عند العرب، بما فى ذلك الشعر فيقول:

مـــا أرانا نـقـــول إلا مـــعـــارا

أو مـــعـــادا من قـــولنا مكرورا

زهير – إذن – يتشكك فى أصالة ما قاله هو وأضرابه من الشعراء، فهم لم يأتوا بمعنى مبتدع، ولا مخترع، وإنما سبيلهم فى ذلك سبيل المردد المكرر لما سبق قوله وإنشاده، سبيل اللاحق المستعير من السابق المتقدم.

ولم يقف قول زهير هذا فى الاستشهاد عند هذا الحد – قدم بدء الحياة

---

(١) الحيوان للجاحظ حـ١ ص١٩٠

(٢) المثل السائر لابن الأثير.

(٣) ضياء الدين ابن الأثير يقدم امرئ القيس على المهلهل بن ربيعة فى هذا الشأن – نفس المصدر.

الأدبية عند العرب – بل هو شاهد – كذلك – على قضية أخرى أكثر خطورة وهي المسماة بـ: السرقات الشعرية. كما تنص على ذلك كتابات الأقدمين وهى التى عنونا لها بـ: المحاكاة بين الأدباء. مؤثرين الثانى على الأول لما فى المحاكاة من لياقة بالأدب وفنونه والأدباء وذوقهم (١).

ولفحول الشعراء – غير زهير – نصوص أخرى صالحة للاستشهاد على القضيتين معاً (٢).

فهذا طرفة بن العبد يقول:

ولا أغير على الأشعار أسرقها

عنها غنيت ، وشر الناس من سرقا

ويقول الأعشى :

فكيف أنا وانتحال القوافى

بعد المشيب كفى ذلك عارا (٣)

فالشاعران ينفيان عن أنفسهما أنهما قد سطوا على أشعار لغيرهما ونسباها إليهما. بل هما فيما يقولان يصدران عن أصالة وابتكار وجدية.

وهذا له دلالتان : أولاهما. التسليم بأن الحياة الأدبية كانت زاخرة قبلهما. وثانيتهما. أن ظاهرة انتحال الشعر ونسبته إلى غير قائله كانت متفشية فى عصرهما.

وإذا كان مولد هذا الانتحال هو العصر الجاهلي بشهادة الفحول من شعرائه. فإن امتداد الزمن به، قد زاده قوة وظهوراً وتفشياً. فعرف شئ منه فى العصر

---

(١) يرجع الفضل فى هذا إلى أستاذنا الدكتور عبد الرحمن عثمان انظر كتابه مذاهب النقد وقضاياه ص٨٨ .

(٢) هما قضيتا : قدم بدء الحياة الأدبية عند العرب، والمحاكاة بين الأدباء فى النماذج الأدبية.

(٣) انتحال القوافى : أخذها عن الغير أو اختلاسها.

الإسلامى. وذاع أمره فى العصر الأموى الذى فشا فيه تقليد القدماء بشكل ملحوظ [1].

أما العصر العباسى، فلم يعد أمر المحاكاة من الظواهر التى تقبل النفى أو تحتاج فى إثباتها إلى دليل. ولم تقتصر المحاكاة فى هذا العصر على تقليد القدماء من الشعراء السابقين. بل أن المعاصرين كجرير والفرزدق كانوا يتهمون بعضهم بالسرق من بعض.

قال جرير يتهم الفرزدق :

سيعلم من يكون أبوه فينا

ومن عرفت قصائده اجتلابا

وقال الفرزدق يتهم جرير بانتحال قصائده وانتسابها إليه:

أن استراقك يا جرير قصائدى

مثل ادعاك سوى أبيك تنقل [2]

وينقل أبو هلال العسكرى هذه القصة قال: (وأخبرنا أبو أحمد قال قال أبو العيناء: سمعت أبا نواس يقول: والله ما أحسن الشماخ حيث يقول:

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فأشرقى بدم الوتين

هلا قال كما قال الفرزدق:

علام تلتفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى

متى تردى الرصافة تستريحى من التهجير والدبر الدوامى

وكان قول الشماخ عيباً عندى فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت:

---

(١) راجع فى هذا. الأغانى لأبى الفرج حـ٩ ص١٢٣ و حـ١٢ ص٣٥ والعمدة حـ٢ ص١٩٢ و ص٢٢٢ والمرشح للمرزبانى ص١١٠ و ص١٤١. والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٩٢.

(٢) البيتان فى الموازنة للآمدى ص٢١٤ ط. عيسى البابى الحلبى.

وإذا المطـى بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام

قريننا من خير من طئ الحصى فلهنّـا علينا حـرمة وذمام

قال. وتبع ذو الرمة الشماخ فقال :

إذا ابن مـوسـى بلالا بلغتـه فقام بفأس بين وصليك جازر [1]

فى هذه القصة ترى محاكاة فى اتجاهين متوازيين. فأبو نواس يعيب قول الشماخ الذى يقضى بهلاك فرسه إذا بلغته عرابة الأنصارى الذى هو محط أمل الشاعر:

ويستحسن قول الفرزدق لأنه يقضى بإراحة فرسه إذا بلغته مراده فكأنه جعل إراحتها جزاء حسناً لها على إسعافها له.

وقد راق هذا المعنى أبا نواس فنهج نهجه فحرم ظهور المطى على الرحال بعد أن بلغته خير من وطئ الحصى محمداً.

كما أن ذا الرمة أعجب بقول الشماخ فحذا حذوه ودعا إلى جزر فرسه بعد بلوغ المأمول.

فأنت ترى أمر المحاكاة – هنا – ظاهراً طرداً وعكساً وإن كان أبو هلال قد ساق القصة مساق الأخذ الحسن.

على أنه لم يلبث أن أخذ يورد أمثلة لقبح الأخذ مثل قول أبى تمام:

حن إلى الموت حتى ظن جاهله بأنه حن مشتاقاً إلى وطن

ونبه أنه مأخوذ من قول فرواش بن خوط:

دنوت له بأبيض مشرفى كما يدنو المصافح للعناق

ويورد اتفاق الفرزدق مع أبى نواس حيث يقول الأول:

تفاريق شيب فى الشباب لوامع وما حسن ليل ليس فيه نجوم

---

(١) الصناعتين ص١٥٨ – ١٥٩ ط الآستانة ١٣١٩هـ.

ويقول الثانى

كأن بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب فى سواد عذار[1]

والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى يلتمس العذر للمحاكين والمقلدين فى العصر العباسى ومن يأتى بعدهم فيقول:

(ومتى تصفت علمت أن أهل عصرنا، ثم العصر الذى بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة وأبعد عن المذمة، لأن من تقدمنا قد استغرق المعانى وسبق إليها وأتى على معظمها. وإنما يحصل على بقايا أما أن تكون قد تركت رغبة عنها، أو استهانة بها، أو لبعد مطلبها .. وتعذر الوصول إليها..[2]).

وتفشى هذه الظاهرة – ظاهرة المحاكاة – على هذا الشكل شد انتباه النقاد والبلاغيين إليها شداً قوياً، فوقفوا عندها طويلاً، وأدلى كل بدلوه فى غمارها وقلبوا فيها القول على كل الوجوه. ترى ذلك واضحاً فى كتاب الوساطة للقاضى الجرجانى. والموازنة للآمدى. والصناعتين لأبى هلال، وأسرار البلاغة لعبد القاهر وغيرهم إذ لم يخل كتاب النقد إلا وفيه طرف – قل أو كثر – حول هذه الظاهرة فلما جاء الخطيب القزوينى وضع تقسيماً دقيقاً لصور تلك المحاكاة والأخذ وبيان هذا التقسيم هو الذى يهمنا بالدرجة الأولى فى هذا المجال. وإليك خلاصة أمينة لمنهج الخطيب فى هذا التقسيم.

*** متى توجه للشاعر تهمة الأخذ والانتحال :؟**

ليس كل شاعر حاكى شعراً يعد أخذاً منه، ومنتحلاً عنه. بل هناك أمور هى قدر مشترك بين كل الشعراء كوصف الشجاع بالأسد. والسخى بالبحر والغيث، والبليد بالحمار والبهى بالشمس، والفتاة الجميلة بالقمر، واحمرار الخدود بالورد، والماكر بالثعلب، وسواد الشعر بالليل، والريق بالخمر، وصفاء

---

(١) المصدر نفسه ص١٧٥ – ١٧٨ .

(٢) الموازنة ص٢١٤ .

الأسنان باللؤلؤ والأقاح. وجمال العيون بالنرجس، وأطراف الأنامل بالعنم، واعتدال القوام (الرشاقة) بغصن البان فهذه وما أشبهها مما اشترك فيه جميع الشعراء. وهذا الاشتراك يسميه الخطيب ومنه قبله عبد القاهر الجرجانى: الاتفاق فى عموم الفرض [1]. فلا يتهم شاعر فيه بأنه قلد أو انتحل أو سرق.

أما الاشتراك فى وجه الدلالة على الغرض كأن يصف شاعر فيتبع فى إثبات الوصف طريقة ومنهجاً لم يتفق إلا له، لأنه لا ينال إلا بفكر، ولا يصل إليه كل أحد [2] فهذا يجوز أن يدعى فيه السبق والأخذ. وأن يقضى فيه بين قائلين بالتفاضل وأن يقارن بين قوليهما فيه.

ثم يقسم الخطيب الأخذ والسرقة بعد هذا التقديم إلى قسمين كبيرين وهما:

(أ) ظاهر. (ب) غير ظاهر.

وذكر ضابط الظاهر فقال هو: أن يؤخذ المعنى كله مع اللفظ كله أو بعضه، أو المعنى كله وحده.

أقسام الأخذ الظاهر وحكمه:

١- النسخ أو الانتحال: وضابطه أن يسطو شاعر على قول شاعر آخر فيأخذه بلفظه كله ومعناه كله. ومن ذلك ما حكى أن عبد الله بن الزبير دخل على معاوية فأنشده:

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران إن كان يعقل

ويركب جد السيف من أن تضيمه ... إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال له معاوية: لقد شعرت بعدى يا أبا بكر. ولم يفارق عبد الله المجلس

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص٢٧١ والإيضاح حـ٢ ص٤٠٢.

(٢) قيدنا وجه الدلالة على الفرض بهذه القيود لإمكان توارد الخواطر فى وجه الدلالة الخالى منها. إذ يصح كالاشتراك فى عموم الغرض.

حتى دخل معن بن أوس المزنى فأنشد شعراً فيه ما أنشده ابن الزبير. فالتفت معاوية إلى ابن الزبير قائلاً:

ألم تخبرنى أنهما - يعنى البيتين اللذين أنشدهما - لك. فقال ابن الزبير: المعنى لى واللفظ له. وبعد فهو أخى فى الرضاعة وأنا أحق بشعره؟!.

وقد وقع مثل هذا بين زهير بن أبى سلمى وأوس حيث ورد بيت واحد فى قصيدتيهما، والبيت هو:

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنا

أصبت حليماً أو أصابك جاهل (١)

وقال الأبيرد اليربوعى يمدح:

فتى يشترى حسن الثناء بما له إذا ألسنة الشبهاء أعوزها القطر

وقال أبو نواس:

فتى يشترى حسن الثناء بما له ويعلم أن الدائرات تدور (٢)

أخذ أبو نواس شطر البيت الأول بلفظه ومعناه كما ترى..

ويعد من النسخ والانتحال إذا بدل الآخذ كلمة من كلام السابق أو أكثر من كلمة بما يرادفها. ومن ذلك قول طرفة:

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

فقد سطا على قول امرئ القيس وهو:

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

---

(١) الجهل والخنا: السفه والفحش. ولا يمكن أن يكون البيت من توارد الخواطر بين الشاعرين. فلابد أن يكون أحدهما أخذ عن الآخر، أو هذا من صنع الرواة.

(٢) السنة الشبهاء: المجدبة. والدائرات: صروف الدهر.

وكل ما فعله طرفة أن بدل كلمة (وتجمل) بمرادفها (وتجلد) لأن التجمل والتجلد بمعنى.

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التى كنت تعلم

أخذه الفرزدق فقال :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التى كنت تعرف

فأبدل كلمة تعرف من كلمة تعلم.

لا شك أن النقاد حينما يعدون هذه النصوص وما جاء على شاكلتها انتحالاً وأخذاً وسرقة، لا شك أنهم صائبون فى الحكم. وقد رأيت أن ابن الزبير اعترف بذلك صراحة لمعاوية. لأن مثل هذا العمل يتنافى مع مبادئ الأمانة، ويسلب من النفوس معانى الثقة التى ينبغى أن يتمتع بها الأدباء.

أما موقف النقاد من هذا النوع بعد الحكم عليه بالانتحال والسرقة فهو الرفض. فكل من انتحل قول آخر فهو مردود والإنصاف أن ينسب القول المنتحل إلى قائله الذى هو أبو عذرته، وليس للمنتحل فضل البتة.

٢- المسخ أو الإغارة : وضابطه أن يأخذ المعنى دون اللفظ أو مع بعض اللفظ وهو ثلاثة أضرب:

(أ) أن يكون الثانى أبلغ من الأول لاختصاصه بفضيلة. وهذا الضرب مقبول وممدوح ومثاله قول بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتك اللهج (١)

أخذه سلم الخاسر فقال :

---

(١) الفاتك اللهج : الجرئ الشجاع.

من راغب الناس مات غماً وفـــاز باللـذة الجســـور

لأن بيت سلم أجمل صياغة وأخصر طريقاً وأقوى معنى.

(ب) أن يكون الثانى مثل الأول. وهنا فلا لوم على الثانى ولا فضل له وإنما الفضل للمتقدم. ومن ذلك قول بشار أيضاً:

يا قوم إننى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

أخذه ابن الشحنة الموصلى فقال:

وإنى امرئ أحببتكم لمكارم سمعت بها ، والأذن كالعين تعشق

وقول أبى تمام:

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلا الفراق على النفوس دليلاً

أخذه أبو الطيب فقال:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت لها المنايا إلى أرواحنا سبلا (١)

(جـ) أن يكون الثانى دون الأول فى البلاغة. وهذا النوع مذموم ومردود كقول أبى تمام:

هيهات لا يلقى الزمان بمثله إن الزمان بمثله لبخيل

أخذه أبو الطيب فقال:

أعدى الزمان سخاؤه فسخا به ولقد يكون به الزمان بخيلا (٢)

قال أبو الطيب: يكون. والأصل أن يقول (كان) فعدل عنها لاستقامة الوزن. ولذا كان بيته دون بيت أبى تمام.

٣- السلخ أو الإلمام: وضابطه أن يكون المأخوذ هو المعنى وحده دون اللفظ. وهو ثلاثة أضرب كذلك:

---

(١) الشاعران يقولان: أن فراق الأحباب هو طريق تسرب الموت إلى النفوس.

(٢) يعنى أن الزمان تعلم السخاء من الممدوح فسخا بوجوده بين الناس.

(أ) أن يكون الأول أبلغ من الثانى وذلك كقول بعض الأعراب يتغزل:

وريحها أطيب من طيبها والطيب فيه المسك والعنبر

أخذه بشار فقال:

وإذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل

فالبون شاسع بين النصين الأول جعل ريح الفتاة أطيب من المسك. والثانى جعل المسك الذى تطيبت به أزكى من البصل. مع ما فيه من مراعاة الذوق من إدناء البصل من فتاته [1]. وهذا النوع مردود بالطبع.

(ب) أن يتساوى الأول والثانى فى الفضل وحكمه أن الفضل فيه للسابق ولا مذمة أيضاً على اللاحق. ومنه قول أحدهم يرثى ابناً له قدمات:

والصبر يحمد فى المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم

أخذه أبو تمام فقال:

وقد كان يدعى لابس الصبر حازما فأصبح يدعى حازما حين يجزع

ومنه قول ابن النطاح:

كأنك عند الكر فى حومة الوغى

تفر من الصف الذى من ورائكا

أخذه أبو الطيب فقال:

فكأنه والطعن من قدامه متخوف من خلفه أن يطعنا

الشاعران كلاهما يصف الممدوح بالشجاعة والإقدام وهما متساويان فى الإجادة.

(جـ) أن يكون الثانى أبلغ من الأول وهذا الضرب مقبول ومحمود. وذلك كقول البحترى:

تصد حياء أن تراك بأوجه أتى الذنب عاصيها فليم مطيعها

---

(١) راجع البلاغة التطبيقية ص٣١٨ للدكتور أحمد موسى إبراهيم.

أخذه المتنبى فقال :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العقاب

فبيت المتنبى أجمل سبكاً لتضمنه معنى قوله تعالى : ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ فكأنه مقتبس منه .

ومنه قول المعذل بن غيلان :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العليا فى جانب الفقر

أخذه أبو تمام فقال :

يصد عن الدنيا إذا عن سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد(١)

فقول أبى تمام أجمل لاحتوائه على مبالغة حسنة لا مقابل لها فى قول ابن غيلان وهى : ولو برزت فى زى عذراء ناهد . يعنى أنه عزوف عن الدنيا إذا تعارضت مع اكتساب المحامد مهما كان فى الدنيا من مغريات .

وقال أبو تمام :

هو الصنع أن يعجل فخير وأن يرث فالريث فى بعض المواضع انفع(٢)

أخذه أبو الطيب فقال :

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام(٣)

وقد فضل النقاد بيت أبى الطيب لاشتماله على زيادة بيان حيث ذكر دعوى وأقام عليها الدليل . فقد ادعى أن بطء العطاء خير له، لأنه عندما يجئ بعد البطء يكون أجزل . وكذلك فإن الجهام أسرع السحب سيراً لكنه لا نفع فيه . والسحاب الممطر هو الذى يتباطأ فى سيره ففى البيت حسن تعليل كما ترى .

---

(١) عذراء فتاة بكر ، ناهد ناتئة الثديين .

(٢) هو : ضمير الشأن . يرث يتباطأ . يعنى هذا الصنع من الممدوح جميل أسرع أم أبطأ .

(٣) السيب : العطاء . والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه .

وإلى هنا ينتهى تقسيم الأخذ الظاهر ، مع التمثيل له . وبقى الأخذ غير الظاهر وهو على خمسة أنواع إليك هى مع التمثيل لها :

(أ) التشابه : وضابطه أن يتشابه معنيا الشاعرين السابق أو المتقدم، واللاحق أو المتأخر. ومن ذلك قول الطرماح :

لقد زادنى حباً لنفسى أننى بغيض إلى كل امرئ غير طائل

وقول أبى الطيب :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

فكل من الشاعرين مدح نفسه وذم غيره . لأن الشطر الأول من بيت الطرماح كالشطر الثانى من بيت أبى الطيب . والشطر الثانى عند الطرماح كالشطر الأول عند أبى الطيب .

وقال جرير يهجو :

ولا يمنعك من أرب لحاهم سواء ذو العمامة والخمار

وقال أبو الطيب :

ومن فى كفه منهم قناة كمن فى كفه منهم خضاب

تشابه الشاعران لأن كلاً منهما يسوى بين رجال المتحدث عنهم وبين نسائهم .

(ب) النقل . وضابطه أن ينقل الثانى معنى الأول إلى غير محله . ومن ذلك قول أبى عبادة البحترى :

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم محمرة فكأنهم لم يسلبوا (١)

أخذ أبو الطيب هذا المعنى ونقله إلى غير موضعه الوارد فيه حيث نقله إلى السيف فقال :

---

(١) يقول أخذت منهم أمتعتهم وعروا من ثيابهم وحلت الدماء محل الثياب فكانهم لم يؤخذ منهم شيئا .

يبس النجيع عليه وهو مجرد

عن غمده ، فكأنما هو مغمد

فجعل جفاف الدم على السيف كالغمد له. وسبق أن جعلها البحترى كالثياب للمسلوبين.

(جـ) القلب : وضابطه أن يكون معنى الثانى نقيض معنى الأول كقول أبى الشيص:

أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللوم

نقض المتنبى هذا المعنى فقال:

أأحبه وأحب فيه ملامة أن الملامة فيه من أعدائه

أبو الشيص تغنى بحب الملامة فى محبوبه. فجاء المتنبى وكره ذلك المحبوب عند أبى الشيص. وهذا هو معنى القلب.

(د) ومنه أن يكون معنى الثانى اشمل من معنى الأول : قالوا ومن أمثلة هذا النوع قول جرير يمدح:

إذا غضبت عليك بنو تميم وجدت الناس كلهم غضابا

بزه أبو نواس بقوله :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد (١)

(هـ) ومنه أن يؤخذ بعض المعنى ويضاف إليه ما يحسنه. ومثاله قول الأفوه الأودى:

وترى الطير على آثارنا رأى عين ثقة أن ستمار(٢)

---

(١) قول أبى نواس أشمل وأقوى لأن ما أثبته لا ينازع فيه بخلاف مدعى جرير فمبناه المبالغة.

(٢) تمار : تطعم.

مع قول أبى تمام :

وقد ظللت عقبان أعلامه ضحى بعقبان طير فى الدماء نواهل [1]

أقامت مع الرايات حتـــى كأنها من الجيـــش إلا أنها لم تقاتـل

زاد أبو تمام فبين أن عقبان الطير تنهل فعلاً من الدماء. وإنها لازمت تحرك الجيش أينما سار، حتى ليخيل للرائى أنها من الجيش. واستدرك فقال: إلا أنها لم تقاتل. فهذه الزيادة وهذا البسط فى الفكرة دفع عن أبى تمام معرة المحاكاة. فصار كأنه ولد المعنى توليداً.

ويذيل الخطيب الحديث عن السرقات الشعرية بشرح الطريقة التى يعلم بها أن شاعراً قد احتذى أو أخذ من شاعر. ويضع أمام النقد قاعدة جديرة بالتقدير وهى أن الحكم بالانتحال والأخذ يجب أن يتناول فى حيطة وعلى بصيرة. فلا تلقى التهم جزافاً لمجرد أن شاعرين اتفقا فى معنى أو لفظ لجواز أن يكون هذا الاتفاق مرجعه إلى توارد الخواطر بين الشاعرين. وقد يكون نتيجة هذا التوارد الاتفاق فى المضمون والصورة فى كل الوجوه. ويسوق دليلاً على ذلك أن ابن ميادة أنشد لنفسه:

مفيد ومتلاف ، إذا ما أتيته تهلل وأهتز اهتزاز المهند

فقيل له : أين يذهب بك. هذا للحطيئة . فقال الآن علمت أنى شاعر إذ وافقته على قوله ولم أسمعه.

وعلى هذا فينبغى على كل ناقد يتصدى لشئ من هذا أن يبنى حكمه على اليقين إذا ثبت لديه. وألا يأخذ بالظنة فتجئ أحكامه قلقة مرفوضة.

ولم يكن هذا الأساس الذى ذكره الخطيب فى إيضاحه إلا نتيجة إيحاء لما

---

(١) عقبان الأولى تماثيل صغيرة توضع فى أعلى الرايات. وعقبان الثانية طيور حقيقية تتبع المعارك لتطعم من القتلى. ونواهل شوارب.

أقره السابقون فى هذا المجال. بل يكاد يتفق مع القاضى عبد العزيز الجرجانى لفظاً ومعنى إذ يقول:

(ولهذا السبب أحظر على نفسى، ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة ... إلا أنى إن وجدت فى شعره معانى كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذاً لا أثبته بعينه، ومسروقاً لا يتميز لى من غيره [1]).

هذا. ومما يتفرع عن المحاكاة والانتحال بين الأدباء فنون أخرى يحسن بنا الإلمام بها لما لها من قيمة فى ميزان النقد والبلاغة. وتلك الفنون هى:

الاقتباس – التضمين – العقد – الحل – التلميح. فإلى هناك والله يرعاك.

* * *

الاقتباس

القبس فى اللغة: الشعلة من النار. والاقتباس مصدر الفعل: اقتبس. ومعناه: استفاد أو استنار. وعلى كل فهذا اللفظ يتضمن أمرين: آخذ وهو المقتبس. ومأخوذ منه وهو المقتبس منه.

وخص البلاغيون الاقتباس بأن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو السنة الشريفة لا على أنه منه.

والصلة بين المعنى اللغوى والمعنى البلاغى ظاهرة لأن المقتبس لشئ منهما فى كلامه مستفيد بما اقتبسه. مستضئ بذلك المقدار الذى وضعه فى كلامه من آيات القرآن أو أحاديث النبى عليه السلام والاقتباس بهذا المعنى وقع فى الشعر والنثر. فمن وقوعه فى الفعل قول الحماسى:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

---

(١) الوساطة ص٢١٥ ط الحلبى.